مِنْ بَلاغةِ الخِطابِ النَّبَوِيِّ

فِي رسالتهِ -ﷺ- إلَى يهُودِ خَيْبَرَ

إعداد

د / وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات القاهرة

مِنْ بَلاغةِ الخِطابِ النَّبَوِيِّ فِي رسالتِهِ -ﷺ- إلَى يهُودِ خَيْبرَ

وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، جامعة الأزهر، القاهرة، جمهورية مصر العربية

البريد الالكترونيّ: wadedaelshenawy١٦٧١.el@azhar.edu.egي

الملخص :

هدفُ هذا البحث إلى بيان بلاغة خطابِ النَّبيّ-ﷺ- فِي إحدى رسائِلِهِ التي أرسلها؛ حيثُ إنَّ للرَّسائلِ النبويةِ أهميةً كبيرةً وأثرًا عظيمًا في نشرِ الدَّعْوةِ الإسْلاميَّةِ العالميَّةِ، الَّتي أُمِرَ النبيُّ-ﷺ- بالجهْرِ بِها، ونشرَها فِي رُبُوعِ الأرضِ، داعيًا إلَى اللهِ بإذْنِهِ وسراجًا مُنيرًا.

والرَّسائلُ النبويةُ أسْلوبٌ منْ أساليبِ الدَّعْوةِ الإسْلاميَّةِ، اتَّبعهُ النبيُّ -ﷺ- في الحِوارِ معَ الآخَرِ مُسْلمًا وغيرَهُ؛ فأرسلَ -ﷺ- رسائلَهُ إلَى المُلُوكِ والأُمَراءِ، منَ الْعربِ والْعجَمِ، وأَرْسلَ إلَى يَهُودِ خيبرَ وغيرِهِمْ، يدْعُوهُمْ إلَى الْإسْلامِ.

وقد تناولتُ رسالته -ﷺ- إلى يهود خيبرَ بِالتَّحْلِيلِ الْبَلاغِيّ، مُبرزة ما بَدَا فِي تِلْكَ الرِّسالةِ مِنْ أسَالِيبِ التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ، واسْتِمالَةِ الْمُخاطَبِ، وبَراعَةِ الاسْتِهْلالِ، وحُسْنِ الْخِتامِ.

والمنْهجُ المُتبع هو المنهج الاسْتِقْرائِيُّ التَّحْلِيلِيُّ، فقدْ طَالعْتُ هذهِ الرِّسالةَ مُطالعةً مُتأنِّيةً، وتناولْتُها بِالتَّحْلِيلِ البلاغِيّ، مُبْرِزَةً أهمَّ سِماتِ أَلْفاظِها، وخصائِصَ تراكِيبِها.

ومِن نتائِجِ هذا البحث أنَّ رسائِلَهُ -ﷺ- كشَفَتْ لنَا عنْ ذلِكَ الأُسْلُوبِ

الْخِطَـابِيّ الْعَـالِي الَّـذِي بَلَـغَ قِمَّـةَ الْبلاغـةِ والْبيـانِ، وأظْهـرَ أدبَ الْحِـوارِ مـعَ الآخَرِينَ، ومِنْ خِلالِـهِ اسْتطاعَ النَّبِـيُّ -ﷺ- أنْ يتَواصَلَ مـعَ الآخَرِينَ، ويُؤثِّرَ فِيهِمِ، عَنْ طَرِيقِ الإقْناعِ بالحُجَّةِ، وإبْهارِ المُرسَلِ إليْهِمْ بالبلاغةِ النَّبويَّةِ.

الكلمات المفتاحيَّة: الخطاب النبوي- بلاغة- الرسائل النبوية- يهود خيبر- تحليل بلاغي.

From The Rhetoric of The Prophetic Discourse in His Message To The Jews Of Khaybar

Wadeda Abdel-Zaher Assayed Elshennawy

Department of Rhetoric and Criticism – Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls – Al-Azhar University – Cairo – Egypt.

Email: wadedaelshenawy١٦٧١.el@azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to show the rhetoric of the prophet's speech in one of his messages. The prophetic Messages have a big importance and a great effect on the spread of the universal Islamic call (daewa) that the prophet – Peace Be Upon Him - commanded to speak it out and spread it throughout the earth, calling to God with his permission and being a lightning lamp. The Prophetic Message is one of the methods of Islamic call that the Prophet (PBUH) followed in his dialogue with the other, a Muslim or not, so he sent his messages to Arabs and non-Arabs kings and princes, and he also sent to the Jews of Khaybar and others calling them to Islam.

The research handles the rhetorical analysis of the prophetic message to the Jews of Khaybar highlighting the styles of desire and intimidation, the attraction of the addressee, the ingenuity of initiation, and the good conclusion.

The approach followed in this research is the inductive analytical approach, so I carefully read this message and analyzed it rhetorically, highlighting the most important features of its vocabulary and its structure.

Some of the results of this research is that the prophet's messages revealed to us this high rhetorical style, which reached the top of the statement and the rhetoric, showed the literature of dialogue with others through which the Prophet (PBUH) could communicate with others and affect them, through persuasion, argument, astonishing the messages' receivers with the prophetic rhetoric, so that some of them responded to his call and converted to Islam after receiving the message directly, and some of them refused.

KeyWords: The prophetic discours - Rhetoric - The prophetic messages - The Jews of Khaybar -Rhetorical Analysis.

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على الْمَبْعُوثِ رحْمةً لِلْعالَمِينَ، وعلى آلِهِ وصحْبِهِ ومَنْ تبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ،

فإنَّ للرَّسائلِ النبويةِ لأهميةً كبيرةً وأثرًا عظيمًا في نشرِ الدَّعْوةِ الإسْلاميَّةِ العالميَّةِ، الَّتي أُمِرَ النبيُّ -ﷺ- بالجهْرِ بِها، ونشرَها فِي رُبُوعِ الأرضِ، داعيًا إِلَى اللهِ بإِذْنِهِ وسِراجًا مُنيرًا.

والرَّسائلُ النبويةُ أسْلوبٌ منْ أساليبِ الدَّعْوةِ الإسْلاميَّةِ، اتَّبعهُ النبيُّ -ﷺ- في الحِوارِ معَ الآخَرِ مُسْلمًا وغيرَهُ؛ فأرسلَ -ﷺ- رسائلَهُ إِلَى المُلُوكِ والأُمَراءِ، منَ الْعربِ والْعجَمِ، وأَرْسلَ إِلَى يَهُودِ خيبرَ وغيرِهِمْ، يدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلامِ.

ولَقدْ أُوتِيَ النَّبيُّ -ﷺ- جَوامِعَ الْكَلِمِ، فَكشَفَتْ لنَا رَسائِلُهُ تلْكَ عنْ ذلِكَ الأُسْلُوبِ الْخِطَابِيِّ الْعَالِي الَّذِي بَلَغَ قِمَّةَ الْبلاغةِ والْبيانِ، وأظْهرَ أدبَ الْحِوارِ معَ الآخَرِينَ، ومِنْ خِلالِهِ اسْتطاعَ النَّبِيُّ -ﷺ- أنْ يتَواصَلَ معَ الآخَرِينَ، ويُؤثِّرَ فِيهِم، عَنْ طَرِيقِ الإقْناعِ بالحُجَّةِ، وإبْهارِ المُرسَلِ إليْهِمْ بالبلاغةِ النَّبويَّةِ، فَمِنْهُم مَّنِ اسْتجابَ لِدَعْوتِهِ -ﷺ-، فأسْلمَ بَعْدَ إرْسَالِ الرِّسَالةِ إليه مباشرة، ومِنْهُم مَّنْ أعْرضَ.

ومِنْ بيْنِ أولئِكَ الَّذِينَ أَرْسَلَ إِليْهِمُ الرَّسُولُ -ﷺ- رِسالةً؛ يهودُ خيْبَرَ، وقَدْ بَدَا فِي تِلْكَ الرِّسالةِ مِنْ أَسَالِيبِ التَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ، واسْتِمالَةِ الْمُخاطَبِ، وبَراعَةِ الاسْتِهْلالِ، وحُسْنِ الْخِتامِ، وذلِكَ كُلُّهُ سَوْفَ يتَّضِحُ مِنْ تناوُلِ هذهِ الرِّسالةِ بِالتَّحْلِيلِ الْبَلاغِيِّ، حيثُ المنْهجُ الاسْتِقْرائِيُّ التَّحْلِيلِيُّ، فقدْ طَالعْتُ هذهِ الرِّسالةَ مُطالعةً مُتأنِّيةً، وتناولْتُها بِالتَّحْلِيلِ البلاغِيِّ، مُبْرِزَةً

أهمَّ سِماتِ ألْفاظِها، وخصائِصَ تراكِيبِها.

خُطَّةُ البحث:

قسَّمتُ البحثَ إلى مقدِّمةٍ، وتمهيدٍ، ومبحثٍ، وخاتمةٍ، وذلك علَى النَّحْوِ الآتي:

- أمَّا المُقدِّمَةُ فَفِيهَا أهمِّيَّةُ الموْضُوعِ، ومنْهجُ البحْثِ، وخُطَّتُهُ.
- تمهيدٌ فيه نُبذةٌ عنْ الخِطابِ النَّبويِّ، ورِسالةِ النَّبيِّ -ﷺ- إلَى يهُودِ خيبرَ.
- مبحثٌ: تَحْلِيلُ رِسَالتِهِ -ﷺ- إلَى يَهُودِ خيْبَرَ تحليلًا بلاغيًّا، لإبْرازِ أهمِّ سِماتِ بلاغتِهِ-ﷺ- .
- الخاتمة: فيها أهمُّ النتائجِ الَّتِي توصَّلْتُ إليها فِي هَذا البحْثِ.
- ثمَّ ثبت المصادر والمراجعِ.

***

تَمْــــهيدٌ

نُبذةٌ عنِ الخِطابِ النَّبويِّ، ورِسالةِ النَّبيِّ -ﷺ- إلَى يهُودِ خيبرَ[١]

تدُورُ مادَّةُ (خطبَ) فِي اللُّغةِ حوْلَ الكلامِ بيْنَ اثْنيْنِ، و"الْخِطَابُ وَالْمُخَاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الْكَلَامِ، وَقَدْ خَاطَبَهُ بِالْكَلَامِ مُخَاطَبَةً وَخِطَابًا، وَهُمَا يَتَخَاطَبَانِ[٢]"، و"خاطَبَهُ أحْسنَ الخِطابِ، وهُوَ المُواجهةُ بالْكلامِ[٣]".

وعليْهِ فالخِطابُ النَّبويُّ هُو مُواجهةُ النبيِّ -ﷺ- غيْرَهُ بكلامٍ بليغٍ ذِي أهمِّيَّةٍ بالِغةٍ، فِيهِ منَ الأوامِرِ والنَّواهِي والإرْشادِ والنُّصْحِ والتَّوْجِيهِ مَا يبْعثُ علَى التَّأْثِيرِ فِي المُتلقِّينَ، وإقْناعِهِمْ؛ لتحْقِيقِ المقْصُودِ.

إنَّ المتأمِّلَ فِي هَدْيِ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، وفِي سِيرتِهِ العَطِرةِ؛ يَلْحَظ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الآياتِ والدَّلائلِ الدَّامِغَةِ علَى حُسْنِ خُلُقِ رسُولِ اللهِ -ﷺ-،

---

(١) "أرض خيبر على ثمانية بُرُدٍ من المدينة، وبها حصون كبيرة، وأوَّلُ حدِّ خَيبَرَ الدّومةُ وهُو وادٍ، وحصن خيبر الأعظم القموص، وهو الذي فتحه علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، وأسفله مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت خيبر في صدر الإسلام دار بني قريظة، وكان بها السموأل بن عادياء المضروب به المثل في الوفاء". يُنظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحِميري (ت ٩٠٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، ١/ ٢٢٨، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

(٢) لسان العرب، لابن منظور جمال الدِّين محمد بن مكرم، مادة (خطب)، دار المعارف– القاهرة، د.ت.

(٣) يُنظر: أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ (ت ٥٣٨هـ)، ١/ ٢٥٥، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠١٠م.

وأنَّ اللهَ أرْسلَهُ رحْمةً لِلْعالَمِينَ، وأنَّهُ دعَا إلَى ربِّهِ بِالحِكْمةِ والْموْعِظةِ الْحسَنةِ، ويتجلَّى الْمنْهَجُ السَّدِيدُ الَّذِي سَلَكَهُ رسُولُ اللهِ -ﷺ- فِي إبْلاغِهِ رِسالاتِ ربِّهِ، هذا الْمَنْهجُ الَّذِي يُعْتبَرُ مَلاذًا آمِنًا لِكُلِّ مَنْ أرادَ أنْ يَسْلُكَ مَسْلَكَ الدَّعْوةِ إلَى اللهِ - تعَالَى-، وأَنْ يتَأَسَّى بِهَدْيِ رسُولِ اللهِ -ﷺ- فِي مُعامَلَةِ أهْلِ الْكِتابِ، ومُكَاتَبَتِهِ لِلْمُلُوكِ والْأُمَرَاءِ، وَمَنْهَجِهِ فِي عَقْدِ الْمُعاهَدَاتِ؛ لِذَا تُعْتَبَرُ مُعاهَدَاتُ الرَّسُولِ -ﷺ- مَعَ الْيَهُودِ سَواءٌ فِي الْمدينةِ، أوْ خَارِجَها لها جانبٌ شديدُ الأهميَّةِ، وذلِكَ لِعدَّةِ أسْبابٍ، منْها:

١-اسْتِمالةُ الْيهُودِ للدُّخولِ فِي الإسْلامِ.

٢-اتِّساعُ دائرةِ الْيهُودِ واحْتِكاكُهُمُ الْمُباشِرُ بِمُمَارسةِ التِّجارةِ فِي الْمدينةِ.

٣-أنَّ الْيهُودَ كانتْ لهُمْ سابِقةُ تَحالُفٍ بيْنَ الْأوْسِ والخزْرجِ قبْلَ قُدُومِ النَّبِيِّ -ﷺ- الْمَدينَةَ، بلْ كَانُوا عَوْنًا فِي تأْلِيبِ الْفِتَنِ بيْنَ الأَوْسِ والْخزْرجِ.

يقُولُ ابْنُ هِشامٍ فِي ذلِكَ: "فكانُوا -أيِ اليَهُودُ- فريقَيْنِ، مِنْهُمْ بنُو قَيْنُقَاعَ، ولَفُّهُمْ حُلَفاءُ الْخزْرجِ؛ والنَّضِيرُ وقُرَيْظةُ، ولَفُّهُمْ حُلَفاءُ الأوْسِ، فَكَانُوا إذا كانتْ بين الأوْسِ والْخزْرجِ حرْبٌ خرجتْ بنُو قَيْنُقاعَ معَ الخزرجِ، وخرجتِ النَّضيرُ وقُريظةُ معَ الأوْسِ يُظاهِرُ كُلُّ واحِدٍ منَ الفريقَيْنِ حُلفَاءَهُ علَى إخْوانِهِ، حَتَّى يتَسَافَكُوا دِماءَهُمْ بينَهُمْ، وبِأَيْدِيهِمُ التَّوْراةُ يَعْرِفُونَ فِيها مَا عليْهِمْ ومَا لَهُم، والأوْسُ والخزْرجُ أهْلُ شِرْكٍ يعْبُدُونَ الأوْثانَ لا يَعْرِفُونَ جنَّةً ولا نارًا، ولا بعثًا ولا قيامةً، ولا كِتابًا، ولا حَلالًا ولا حرامًا، فإذا وَضَعَتِ الْحرْبُ أوْزارَها افْتدوْا أُسَاراهُمْ؛ تصْديقًا لِما فِي التَّوْراةِ، وأخذَ بهِ بعضُهُم منْ بعْضٍ، يَفْتدِي بنُو قيْنُقاعَ مَنْ كانَ مِنْ أسْراهُمْ فِي أيْدِي الأوْسِ، وتَفْتدِي النَّضِيرُ وقُرَيْظةُ ما فِي أيْدي الْخزْرجِ منْهُمْ، يقُولُ اللهُ -تَعالَى لهُمْ حِينَ

أنَّبَهُمْ بذلكَ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، ففِي ذلِكَ منْ فِعْلِهِم معَ الأوْسِ والخزْرجِ نزلتْ هذهِ القصَّةُ"[١]، فكَانَ لا بُدَّ مِنْ عقْدِ مُعاهداتٍ معَ بنِي يهُود بضوابطَ صارِمةٍ، طالمَا أنَّهُمْ أهْلُ نكْثٍ لِلْعُهُودِ، ففِيها فتْحٌ لِلْمُسْلمينَ، وتأْمينٌ لِدوْلةِ الإسْلامِ.

٤-أنَّ اليهُودَ الْمُجاوِرينَ للمدينةِ كانتْ ترْبطُهُمْ روابِطُ باليهُودِ خارجَهَا، مِثْل يهُودِ خيْبَرَ، ولعلَّ هذا مِنْ أسْبابِ غزْوةِ خيبرَ.

٥- أنَّ مُكَاتَباتِ النَّبِيِّ -ﷺ- تَحْمِلُ رسائلَ قويَّةً لِتثْبِيتِ الدَّوْلةِ الإسْلاميَّةِ فِي عهْدِها الأوَّلِ، وهذا ما يتجلَّى فِي احْترامِ الأدْيانِ الأُخْرَى، وتذْكِيرِ أتْباعِها بِمُشْترَكِ النُّبُوَّةِ بيْنَ رسُولِ اللهِ-ﷺ- وأنْبيائِهِمْ – عليهِمُ السلامُ-.

٦-أنَّ هذهِ المُعاهَداتِ تُعْطِي صُورةً مُشْرقةً لِجوْهَرِ الرِّسالةِ، وتُثْبِتُ الْمنْهَجَ الأخْلاقِيَّ للْمُسْلِمينَ، وتُبيّنُ عالَمِيَّةَ الإسْلامِ.

لقدْ عاهدَ رسُولُ اللهِ -ﷺ- فِي فتْرةِ الْعهْدِ الْمدنِيِّ كُلَّ الْيَهُودِ بِالجزيرةِ العربيَّةِ، فعاهدَ يهُودَ الْمدينةِ، ومِنْهُمْ ذوُو الأُصُولِ العربيَّةِ الَّذِينَ تهوَّدُوا بعْدَ اخْتِلاطِهِمْ بالْيَهُودِ، كيهُودِ بَنِي عوْفٍ وغيرِهِمْ، وكُلُّها فُروعٌ مِنْ قَبِيلتَيِ الأَوْسِ والْخزْرجِ، ممَّنْ وردَ ذِكْرُ قبائِلِهِمْ فِي عهْدِ الْمدِينةِ الشَّهِيرِ الَّذِي

---

[١] السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام أبي محمد بن عبد الملك المغافري البصريّ (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ٢/ ٥٤٠، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢م.

أبْرمَهُ -ﷺ- مَعَهُمْ عقِبَ هِجْرتِهِ إلَى الْمدينَةِ، ومِنْهُمُ الْقبَائِلُ الْيهُودِيَّةُ الثَّلاثُ الْمَشْهُورةُ: بنُو قَيْنُقاعَ، وبنُو النَّضيرِ، وبَنُو قُريْظَةَ، وقدْ كانَ هؤلاءِ ينْتَسِبُونَ عِرْقيًّا إلَى الْيَهُودِ، كمَا عَاهدَ يَهُودَ خيْبَرَ ومَنْ إليْهِمْ، ولَمْ يُعاهِدْهُمُ الرَّسُولُ -ﷺ- إلَّا بَعْدَ أنِ انْتَصَرَ علَى مُعْظَمِهِمْ فِي غَزْوَةِ خيْبَرَ مَطْلَعَ الْعامِ السَّابِعِ الْهِجْرِيِّ.

وقدِ اقْتصَرْتُ فِي هذا الْبحْثِ علَى كِتابِ النَّبِيِّ -ﷺ- إلَى يَهُودِ خيْبَرَ الَّذينَ لمْ يدَّخِرُوا وُسْعًا فِي نقْضِ الْعَهْدِ بعْدَ مُعاهَدَةِ الرَّسُولِ -ﷺ- معهُمْ، لِتَتَبَيَّنَ طَبيعةُ الشَّخْصِيَّةِ الْيهُودِيَّةِ.

وكانتْ رسالتُهُ-ﷺ- إلَيْهِمْ مُوجزةً فِي ألفاظِها، كثيرةً فِي معانِيها، ساميةً فِي بلاغتِها، حيثُ فصاحةُ أسْلُوبِها، وجزالةُ ألْفاظِها، ووضوحُ معانِيها، ودقَّتُها، وإحْكامُها وترابُطُها، وسيتَّضِحُ ذلكَ منْ خلالِ تحليلِ هذه الرسالةِ.

***

مبحـــــث

تحْلِيلُ رسالةِ النَّبِيِّ -ﷺ- إلَى يَهُودِ خَيْبَرَ تحْلِيلا بلاغياً

نَصُّ الرِّسالة:

"قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ(١): وَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلَى يَهُودِ خَيْبَرَ، فِيمَا حَدّثَنِي مَوْلًى لِآلِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبّاسٍ: بِسْمِ اللهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ، مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللهِ - صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ- صَاحِبِ مُوسَى وَأَخِيهِ، وَالْمُصَدّقِ لِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، أَلَا إنّ اللهَ قَدْ قَالَ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ التّوْرَاةِ، وَإِنّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وَإِنّي أَنْشُدُكُمْ بِاَللهِ، وَأَنْشُدُكُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ، وَأَنْشُدُكُمْ بِاَلّذِي أَطْعَمَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ الْمَنَّ وَالسّلْوَى، وَأَنْشُدُكُمْ بِاَلّذِي أَيْبَسَ الْبَحْرَ لِآبَائِكُمْ حَتّى أَنْجَاهُم مّنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ إلّا أَخْبَرْتُمُونِي: هَلْ تَجِدُونَ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، وقيل: ابن كوثان العلامة الحافظ الأخباري أبو بكر، وقيل: أبو عبد الله القرشي المطلبي مولاهم المدني، صاحب السيرة النبوية، وكان جده يسار من سبي عين التمر في دولة خليفة رسول الله -ﷺ-، وكان مولى قيس بن مخرمة ابن المطلب بن عبد مناف - >-، وولد ابن إسحاق سنة ثمانين، ورأى أنس بن مالك بالمدينة، وسعيد بن المسيب، وقيل عنه: ابن إسحاق رجلٌ قد اجتمع الكبراءُ من أهل العلم على الأخذ عنه، وكان خرج من المدينة قديمًا، فأتى الجزيرة والكوفة والري وبغداد، فأقام بها حتى مات في سنة ١٥١هـ. يُنظر: سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ١٩/٦ وما بعدها بتصرف، دار الكتب العلمية، لبنان- بيروت، ٢٠١٠م.

أَنْ تُؤْمِنُوا بِمُحَمّدٍ؟، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ فَلَا كُرْهَ عَلَيْكُمْ ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فَأَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ وَإِلَى نَبِيّهِ[١]".

***

(١) السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام، ٢/ ٥٤٤. وعيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائل والسير، للإمام الحافظ فتح الدين أبي الفتح محمد بن سيد الناس الشافعيّ (ت ٧٣٤هـ)، تحقيق: الشيخ إبراهيم محمد رمضان، ١/ ٢٤٣، دار القلم، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٤هـ– ١٩٩٣م. ونصب الراية لأحاديث الهداية، للعلامة جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزَّيْلعيّ الحنفيّ(ت ٧٦٢هـ)، مع حاشيته النفيسة بغية الألمعيّ في تخريج الزَّيلعيّ، ٤/ ٤١٩، إشراف: محمد عوامة، مؤسسة الرَّيَّان، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م. وإعْلام السائلين عن كتب سيّد المرسلين –ﷺ–، للإمام محمد بن طولون الدمشقيّ (ت٩٥٣هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، صـ٩٣، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م.

التحليل البلاغي:

"بِسْـــمِ اللهِ الرّحْمَــنِ الرّحِيمِ،

مِنْ مُحَمَّـدٍ رَسُـــولِ اللهِ - ﷺ-

صَاحِبِ مُوسَـــى وَأَخِيـهِ،

وَالْمُصَدّقِ لِمَا جَاءَ بِهِ مُـــوسَى"

افْتَتَحَ النَّبيُّ الكريمُ-ﷺ- هذهِ الرّسالةَ وابْتدأهَا بِبراعةِ الاستِهلالِ، وهِيَ البَسْملةُ؛ وهذَا منْهجُهُ -ﷺ- فِي افْتِتاحِ رسائِلِهِ، حيْثُ أخذتْ رسائِلُهُ شكْلًا مُحدَّدًا وإطارًا خاصًّا مِنْ حيْثُ افْتِتاحُها، والتَّثْنِيةُ بذِكْرِ المُرْسِلِ (مِنْ مُحمَّدٍ)، ووَصْفُهُ بِصِفتِهِ (رسُولِ اللهِ)، ثُمَّ ذِكْرُ المُرْسَلِ إليْهِ -غَالِبًا-، ثُمَّ التَّمْهِيدُ للموضُوعِ، ثُمَّ مضْمُونُ الرِّسالةِ، ثُمَّ الختامُ.

وافْتِتاحُ الرِّسالةِ بالبسْملةِ فيهِ دلالةٌ على مضْمُونِها، وهوَ توحِيدُ اللهِ –ﷻ-، والدَّعْوةُ إليْهِ -ﷻ-، وذلكَ مُفادٌ مِنْ حذْفِ العامِلِ فِي البَسْملةِ، وتقدِيرُهُ (أَبْتَدِئُ)؛ لأنَّهُ "موْطِنٌ لا يَنْبغِي أنْ يَتقدَّمَ فِيهِ سوَى ذكْرُ اللهِ، فلوْ ذكرْتَ الفِعْلَ وهُو لا يَسْتَغْنِي عنْ فاعِلِهِ؛ كانَ ذلكَ مُناقِضًا للْمقْصُودِ، ولكِنْ لا تقولُ هذا المُقدَّرَ؛ ليكُونَ اللفظُ فِي اللِّسانِ مُطابِقًا لِمقْصُودِ الجِنَانِ، وهو أنْ لا يكُونَ فِي القلْبِ ذِكْرٌ إلَّا اللهُ وحْدَهُ(١)".

وتتجلَّى بلاغةُ الإيجازِ فِي حذْفِ العامِلِ فِي البسْملةِ؛ حيْثُ إنَّ لَفظَ (بِسْمِ) جارٌّ ومجْرُورٌ مُتعلِّقانِ بِمحذُوفٍ هو الفعلُ "أبْتدِئُ"، وقدْ حُذِفَ؛ لكوْنِهِ معْلُومًا، ولكثْرةِ اسْتِعْمالِهِ.

---

(١) بدائع الفوائد، للعلامة الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقيّ ابن قيّم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: أحمد عبد السلام، ١/ ٢٢، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٤م.

والباءُ فِي قَوْلِهِ: (بِسْمِ) لهَا معنيانِ، إمَّا الاسْتِعانةُ، وهِيَ "الدَّاخِلةُ علَى آلةِ الفِعْلِ، نحْو: "كَتَبْتُ بالقَلَمِ"، ومنْهُ باءُ البسْملةِ؛ لأنَّ الفعْلَ لا يتأتَّى علَى الوجْهِ الأكْملِ إلَّا بِها[1]" أي أبتَدِئُ مُستعِينًا باللهِ، وعلى هذا المعنَى يكُونُ فِي الكلامِ اسْتِعارةٌ مكنيَّةٌ؛ لتشبِيهِها بارْتِباطٍ يصِلُ بينَ المُستعِينِ والمُستَعانِ بهِ[2].

وإمَّا أنْ يكُونَ مِنْ معانِيها الإلْصاقُ، وهوَ معنًى مجازيٌّ هُنا، نحْوَ "مررْتُ بِزيدٍ"، أيْ ألْصَقتُ مُرُورِي بِمكانٍ يَقْرُبُ مِنْ زيْدٍ[3]، وعليْهِ فيكونُ في الكلامِ مجازٌ مُرْسلٌ علاقتُهُ المحلِّيَّةُ.

وقدْ كَانتْ كُلُّ الرَّسائِلِ مُنْذُ عَهْدِ النَّبيِّ الكَريمِ-ﷺ- تَبْتَدِئُ بالبَسْمَلَةِ، وهذِهِ سُنَّةٌ قدِ الْتَزَمَ بهَا النبِيُّ -ﷺ-، وكَانَ حَريصًا عَلَى إثْباتِهَا حتَّى فِي الحديثِ معَ أعْدائِهِ، وقدْ رُوِيَ عنْهُ -ﷺ- أنَّهُ قَالَ:

"كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدَأُ فيهِ بالحمدُ لله ، فَهوَ أقطَعُ"، وفِي رِوايةٍ أُخْرَى: "كُلُّ أمرٍ ذي بالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْطَعُ [4]".

([1]) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ١/ ١٢٤، دار الطلائع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.

([2]) يُنظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمُحيي الدين درويش، ١/ ٢٥، ط٧، دار ابن كثير- بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

([3]) السابق، ١/ ١٢٢.

([4]) أخرجه أبو داود، وابنُ حبان والنسائيّ، عنْ أبِي هُريرة -رضي الله عنه- ، وهو حديث حسن. ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، تحقيق: عبد الصمد محمد عثمان، ١٣/ ١٩٠، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط٢، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م .

وفِي البدْءِ بـ" الرّحْمَـنِ الرّحِيمِ"، إشاعةُ جوٍّ مِنَ الرَّحْمةِ الَّتِي تستلْزِمُ الْعَطْفَ، والرِّفْقَ، واللِّينَ، والتَّسامُحَ، وغيْرَ ذلِكَ مِنْ أساليبِ التَّرْغِيبِ، والتَّشْوِيقِ إلَى مضْمُونِ الرّسالَةِ.

وهذا مِنْ براعةِ الاسْتِهلالِ، والتَّأنُّقِ فِي الكَلامِ؛ إذِ المُتكلِّمُ ينبغِي لهُ أنْ يتأنَّقَ فِي ثلاثةِ مواضِعَ مِنْ كلامِهِ؛ عندَ ابتدائِهِ، وعندَ انْتِقالِهِ مِنْ معنًى إلى آخرَ، وعندَ انْتِهائِهِ.

فالابْتِداءُ "وهُوَ المَطْلَعُ؛ لأنَّهُ أوَّلُ ما يَقْرَعُ السَّمْعَ، فَإذَا كانَ بِهذِهِ المَثابَةِ؛ أقْبلَ السَّامِعُ علَى الكلامِ ووعَاهُ، وإلَّا أعْرَضَ عنْهُ وإنْ كانَ حَسَنًا(١)".

وتتجلَّى البلاغةُ النَّبوِيَّةُ فِي ذِكْرِهِ -ﷺ- اسْمَ المُرْسِلِ (مِنْ مُحَمَّـدٍ)، وإتْباعِهِ بِصِفتِهِ (رَسُـولِ اللهِ - ﷺ-)؛ وفِي هذا ما فِيهِ منَ التَّمْكِينِ لِمكانةِ النبِيّ -ﷺ-، والتَّقْرِيرِ لهَا فِي النُّفُوسِ مِنْ أوَّلِ الأمْرِ.

كما تَتجلَّى بَلاغةُ الخِطابِ النَّبويّ فِي اسْتِمالَةِ المُرْسَلِ إليْهِ، فِي قولِهِ -ﷺ-: (صَاحِبِ مُوسَـى وَأَخِيـهِ، وَالْمُصَدِّقِ لِمَا جَاءَ بِهِ مُـوسَى)؛ حيْثُ بدَأَ النبِيُّ -ﷺ- يُذَكِّرُ يَهُودَ خَيْبَرَ بنبيِّهِم مُّوسَى وأخِيهِ هارُونَ؛ لِيُؤَكِّدَ لَهُمْ أنَّ الأنبِياءَ كُلَّهُمْ مُجْتمِعُونَ علَى دينٍ واحِدٍ، ورسالتُهُمْ واحِدةٌ، وَهِيَ توْحِيدُ اللهِ -ﷻ-، وإنِ اخْتلفتْ شرائِعُهُمْ، ولِيُقرِّرَ أنَّ ما جاءَ بِهِ مُحمَّدٌ-ﷺ- هُوَ مِنْ أصْلِ مَا جاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ موسَى - أيُّها الْيهُودُ-.

وفِي هذَيْنِ الوصْفَيْنِ (صَاحِبِ مُوسَـى وَأَخِيـهِ، وَالْمُصَدِّقِ لِمَا جَاءَ بِهِ

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي (ت٧٧٣هـ)، ضمن شروح التلخيص، ٤/ ٥٣١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.

مُــوسَى) دلالةٌ علَى التَّرابُطِ بيْنَ الأدْيانِ عِنْدَ أهْلِ الكِتابِ، وإشارةٌ إلَى أنَّ الأنْبِياءَ أبْنَاءُ علَّاتٍ، ودِينُهُمْ واحِدٌ، يَعنِي أنَّهُمْ مِنْ أبٍ واحدٍ، وأُمَّهاتُهُمْ مُختلفةٌ، كذلِكَ دِينُهُمْ يجْمعُهُ أصْلٌ واحِدٌ هو توحيدُ اللهِ -ﷻ-؛ كمَا جاءَ فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "الأنْبِيَاءُ إِخْوةٌ لِعَلَّاتٍ؛ أُمَّهاتُهُمْ شَتَّى، ودِينُهُمْ وَاحِدٌ"(١).

ويُعَدُّ التلميح بـ "التَّاريخُ مِنَ الأساليبِ الَّتِي اسْتخْدمَها النَّبِيُّ -ﷺ- فِي سبِيلِ تبْليغِ الدَّعْوةِ الإسْلامِيَّةِ إلَى اليَهُودِ، فقدْ ذكَّرَهُمْ بِمُوسَى -عليه السلام-، وما أنْعمَ اللهُ بِهِ علَى أسْباطِهِم مِّنْ قبْلُ، وقصَّةِ نجاتِهِم مِّنْ فِرْعوْنَ وعملِهِ، علَى الرَّغْمِ مِنْ أُمِّيَّتِهِ -ﷺ-، وعدمِ اطِّلاعِهِ علَى كُتُبِ تارِيخِهِمْ، وذلكَ دليلٌ علَى أنَّهُ -ﷺ- قدْ أُوحِيَ إليْهِ بِذلِكَ(٢)".

واجْتِماعُ بَراعةِ الاسْتِهلالِ مَعَ التَّمْهِيدِ والتَّهْيِئَةِ إلَى الغَرضِ المَقْصُودِ مِنَ الرِّسالةِ فِي مُقدِّمَتِها، وتَشْوِيقِ المُتلقِّي إلَى مضْمُونِ الرِّسالةِ، وترْغِيبِهِ؛ إنَّمَا هُوَ مِنْ مُراعاةِ النَّبِيِّ -ﷺ- لِمُقْتَضَى حالِ المُخاطَبِ، ومُراعاةِ قَدْرِ المُرْسَلِ إليْهِ ولُغتِهِ وعقْلِهِ وعَقيدتِهِ، "فَأَوَّلُ مَا يَنْبغِي أنْ تسْتعْمِلَهُ فِي كِتابتِكَ مُكاتَبَةُ كلِّ فريقٍ علَى مِقْدارِ طبقَتِهِمْ وقُوَّتِهِمْ فِي الْمَنْطِقِ(٣)".

وقدِ اشتملتْ مُقدِّمةُ الرِّسالةِ تِلْكَ "بِسْــمِ اللهِ الرَّحْمَــنِ الرَّحِيمِ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، عنْ أبي هُريرة -رضي الله عنه- (بَابُ قَوْلِ اللَّهِ: وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا)، حديث رقم: (٣٢٨٤).

(٢) الأحداث التَّاريخيّة للنبيّ -ﷺ- دراسة تاريخية منهجية، د/ إمام الشافعي محمد حمودي، صـ٨١، دار الخليج – عمان، ٢٠١٧م.

(٣) الصِّناعتان الكتابة والشعر، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صـ١٥٤- ١٥٥، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

مِنْ مُحَمَّـدٍ رَسُــولِ اللهِ - ﷺ-، صَاحِبِ مُوسَـــى وَأَخِيـهِ، وَالْمُصَدِّقِ لِمَا جَاءَ بِهِ مُــوسَى" علَى حُسْنِ اسْتِدْراجٍ(١)، ولُطْفِ مُحاورةٍ؛ وذلكَ لأنَّهُ –ﷺ– صدَّر كتابَهُ بقوْلِهِ: (صَاحِبِ مُوسَـــى وَأَخِيـهِ)، وإنَّما فعلَ ذلكَ؛ "إزالةً لِلْوَحْشَةِ عنْ يهُودِ خيْبرَ، وتسكينًا لِخواطِرِهِمْ، وإيناسًا لقُلُوبِهِمْ عن نِّفارِها عنْهُ بكوْنِهِ صاحِبًا لِنبِيِّهِمْ، وأخًا لهُ ومُصدِّقًا لِما جاءَ بِهِ مُوسَى؛ كلُّ ذلكَ إنَّما يفْعلُهُ علَى جِهةِ الْمُلاطَفَةِ؛ لِيَسْتَدْرِجَهُمْ إلَى تَصْدِيقِهِ بِالمُحاورةِ اللَّطِيفَةِ(٢)".

وبعْدَ هذِهِ المُقدِّمةِ وما فِيها مِنْ مُحاورةٍ لطِيفةٍ، ونُكتٍ دقيقةٍ فِي استِدْراجِ الخّصْمِ إلى الإذْعانِ والتَّسْلِيمِ(٣)؛ تتجلَّى بلاغةُ الخِطابِ النَّبَوِيِّ فِي أسْلُوبِ اللَّفْتِ والتَّنْبِيهِ والإيقاظِ، فِي قوْلِهِ –ﷺ–:

" أَلَا إنَّ اللَّهَ قَدْ قَالَ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ التّوْرَاةِ،
وَإنّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ "

---

(١) الاسْتِدْراجُ: "اسْتِفْعالٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: اسْتدْرَجْتُهُ إلَى كذا، إذا نزَّلْتَهُ درجةً درجةً؛ حتَّى تسْتدْعِيهِ إليْكَ، وينْقادَ لِما قُلْتَهُ، وهذا اللَّقبُ إنَّما يُطْلَقُ علَى بعْضِ أساليبِ الْكلامِ، وهو ما يكُونُ موْضُوعًا لِتقْريبِ المُخاطَبِ، والتَّلطُّفِ بِهِ، والاحْتِيالِ عليْهِ، بالإذْعانِ إلى المقْصُودِ منهُ، ومُساعدتِهِ لهُ بالقَوْلِ الرَّقِيقِ والعِبارةِ الرَّشِيقَةِ". الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ اليمنيّ (ت٧٠٥هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، ٢/ ١٤٨، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

(٢) الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ٢/ ١٥٢.

(٣) يُنظر: المثل السَّائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفضلِ ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصليّ (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ٢/ ٦٤، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

مُسْتَفْتِحًا كلامَهُ بعْدَ التَّهْيئةِ بالمُقدِّمةِ، بـ(ألا) الاسْتِفْتاحِيَّةِ التَّنْبِيهِيَّةِ، الَّتِي تَلْفِتُ انْتِباهَ المُخاطَبِ، "فتدُلُّ علَى تحقُّقِ ما بعْدَها، وإفادتُها التَّحْقِيقَ منْ جِهةِ ترْكِيبِها منَ الهمزةِ و "لا"، وهمزةُ الاستفهامِ إذا دخلتْ علَى النَّفْي أفادتِ التَّحْقِيقَ[1]"، ويزيدُ مِنَ اللَّفْتِ والانْتِباهِ التَّأكِيدُ بـ "إنَّ" الَّتِي تُفِيدُ حتْمِيَّةَ ثُبُوتِ الخبَرِ للْمُبْتَدَأ، ثُمَّ التَّحْقيقُ بالْحرفِ "قدْ"، وتقدِيمُ مُتعلِّقِ الفِعْلِ (لَكُمْ) علَى النِّداءِ، فضْلا عنِ التَّنْبِيهِ بالنِّداءِ؛ كُلُّ ذلكَ قدِ اجْتمعَ معَ (ألا) التَّنْبيهيَّةِ فِي ترْكِيبٍ واحدٍ؛ ممَّا ضاعفَ منَ التَّنْبِيهِ، وزيادةِ التَّشْويقِ، والاهْتِمامِ بالخبرِ الآتِي؛ فيكُونُ أبلَغَ فِي محاجَّةِ الخَصْمِ، وإلْزامِهِ بالإقْبالِ علَى الكلامِ، والتَّسْجيلِ عليْهِ.

واجْتِماعُ عددٍ مِنَ المُؤكِّداتِ الْقوِيَّةِ يُناسِبُ ما اتَّسَمَ بِهِ يَهُودُ خَيْبَرَ مِنْ إصْرارٍ علَى الإنْكَارِ والْعِنادِ فِيهِ.

وقَوْلُهُ -ﷺ-: (يَا مَعْشَرَ أَهْلِ التّوْرَاةِ)، فِيهِ حُسْنُ اسْتِدْراجٍ، ولَطِيفُ مُحاورةٍ كذلكَ؛ لأنَّ هذا القَوْلَ يُعدُّ " تشريفًا للْيَهُودِ أهْلِ التَّوْراةِ، ورَفْعًا لِمكانِهِمْ، حيثُ صارُوا مُخْتَصِّينَ بِكِتابِ اللهِ -تعالَى- مِنْ بيْنِ سائرِ الخَلْقِ[2]".

كمَا أنَّ فِي هذَا القَوْلِ: (يَا مَعْشَرَ أَهْلِ التّوْرَاةِ) تَلْمِيحًا يُذكِّرُ هؤُلاءِ الْيهُودَ بِما ورَدَ فِي كِتابِهِمُ التَّوْراةَ مِنْ تعَالِيمَ تتَّفِقُ معَ ما جاءَ بِهِ

([1]) "ألا بفتح الهمزة والتخفيف من معانيها الإنكارُ، والتوبيخُ، والتمني، وتحقُّقُ ما بعْدَها" مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ١/ ٩٠، الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، صـ٣٨١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

([2]) الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ٢/ ١٥٢.

النَّبيُّ –ﷺ–.

ولمَّا كَانَ اليَهُودُ بِطبِيعتِهِم مُعانِدِينَ؛ فقدِ استخْدَمَ معهُمُ النَّبيُّ –ﷺ– أسْلُوبَ المَحاجَّةِ والاسْتِدْراجِ والتَّنْبِيهِ والتَّأْكِيدِ، علَى نَحْوِ مَا وردَ فِي العِبارةِ السَّابِقَةِ مَنَ التَّأكِيدِ بـ(إنَّ)، والتَّحْقِيقِ بـ(قدْ)، والتَّنْبِيهِ بـ(ألا)، والنِّداءِ بـ(يا)، وأُسْلُوبُ "الاسْتِدْراجِ اتِّجاهٌ فِي البلاغةِ والخِطابِ، يَسْتجْلِبُ فِيهِ المُتكلِّمُ كُلَّ ما مِنْ شأنِهِ اسْتِدْناءُ القَبُولِ لدَى المُخاطَبِ، واسْتِدْعاؤُهُ، واسْتِباقُ النُّفُورِ والمُعارضةِ بِقطْعِ أسْبابِها ومُولِّداتِها فِي نَفْسِ المُخاطَبِ[1]".

يقُولُ أبُو هلالٍ العسْكريّ: "واعْلَمْ أنَّ الْمَعانِيَ الَّتِي تَنْشَأُ الْكُتُبُ فِيهَا مِنَ الْأَمْرِ والنَّهْيِ سَبِيلُهَا أَنْ تُؤَكَّدَ غَايَةَ التَّوْكِيدِ بِجِهةِ كَيْفِيَّةِ نَظْمِ الْكَلامِ، لا بِجِهَةِ كَثْرةِ اللَّفْظِ؛ لأنَّ حُكْمَ مَا يَنْفُذُ عَنِ السُّلْطَانِ فِي كُتُبِهِ شَبِيهٌ بِحُكْمِ تَوْقِيعَاتِهِ، مِنِ اخْتِصَارِ اللَّفْظِ وتَأْكِيدِ الْمَعْنَى، هَذَا إِذَا كَانَ الْأَمْرُ والنَّهْيُ وَاقِعَيْنِ فِي جُمْلَةٍ واحِدَةٍ لا يقَعُ فِيهَا وجُوهُ التَّمْثِيلِ لِلْأَعْمَالِ، فَأَمَّا إِذَا وَقَعَا فِي ذلِكَ الْجِنْسِ، فَإِنَّ الْحُكْمَ فِيهِمَا يُخَالِفُ مَا ذَكَرْنَاهُ، وسَبِيلُ الْكَلامِ فِيها أَنْ يُحْمَلَ عَلَى الْإِطالَةِ والتَّكْرِيرِ دُونَ الْحذْفِ والْإِيجَازِ[2]".

وقَوْلُهُ –ﷺ–: (وَإِنَّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ)، احْتِجاجٌ وتسْجيلٌ علَى الْيهُودِ المُخاطَبِينَ؛ لِئلَّا يَتأتَّى مِنْهُمْ إنكارٌ بِمَا هُو موْجُودٌ عِندَهُمْ فِي

---

(1) مُصطلحُ الاسْتِدارج المفهُوم والأثر دراسة بلاغية تأصيلا وتطبيقًا، د/ محمد بن عبد الرحمن الخراز، صـ٨٧٤، بحث منشور في مجلة كليّة اللغة العربية بالزقازيق، العدد الخامس والثلاثون، سنة ٢٠١٥م.

(2) الصّناعتان الكتابة والشعر، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، صـ١٥٦، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

التَّوْراةِ؛ ولِذا ذَكَّرَهُمُ النَّبيُّ -ﷺ- بِما جاءَ عنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ، بقَوْلِهِ -تعالَى-: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾، مُقْتَبِسًا مِنَ القُرآنِ الكريمِ الَّذي عَمدَ -ﷺ- إلَى توْظِيفِهِ فِي تأكِيدِ كَلامِهِ، وتَدْعِيمِ بَيانِهِ بِمَا يُناسِبُ كُلَّ قَوْمٍ؛ وذلكَ حَمْلًا لَهُمْ علَى التَّصْدِيقِ بمَا قالهُ -ﷺ-، والإذْعانِ لهُ، وهذا فِيهِ مِنَ المُراعَاةِ للأحْوالِ العَقَديَّةِ لِلمُرسَلِ إلَيْهِمْ رِسَالَتُهُ -ﷺ-.

ولَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ -ﷺ- قَارِئًا لِلكُتُبِ السَّماوِيَّةِ قَبْلَ البَعْثَةِ، وكَوْنُهُ يَعْلَمُ بِما ورَدَ فِي التَّوْراةِ، ويأْتِيهِمْ بِآيةٍ مِمَّا نُزِّلَ علَيْهِ تتَّفِقُ معَ ما ورَدَ عِنْدَهُمْ؛ فهذا مِنْ قَبِيلِ البرْهَنَةِ، وتَقْدِيمِ الحُجَّةِ النَّاصِعةِ علَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ -ﷺ-.

ومَقُولُ القوْلِ جُمْلةُ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ. . .﴾، وقَدِ اعْتُرِضَ بيْنَ القَوْلِ "ألَا إنَّ اللَّهَ قَدْ قَالَ لَكُمْ"، بالجُملةِ النِّدائيَّةِ " يَا مَعْشَرَ أَهْلِ التَّوْرَاةِ "، وبِجُملةِ "وَإِنّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ "؛ والغرضُ فِي كِلَيْهِما تذْكِيرُ الْيَهُودِ بِما كانَ مِنْ بِشارةِ النَّبِيِّ -ﷺ- بِهِ فِي كِتابِ التَّوْراةِ، ولِذلكَ نَاداهُمُ النَّبيُّ -ﷺ- بِـ " مَعْشَرَ أَهْلِ التَّوْرَاةِ "، وأَكَّدَ جُملتَهُ "وَإِنّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ "بكُلٍّ منْ (إنَّ، واسْميَّةِ الجُمْلةِ، ولامِ التَّأكِيدِ الدَّاخِلةِ علَى الخَبَرِ)؛ وذلكَ لِدَحْضِ عِنادِهِمْ.

واخْتِيارُهُ-ﷺ- التَّذْلِيلَ بِمَا وَرَدَ عِنْدَ اليَهُودِ فِي التَّوْراةِ، وهُوَ هذهِ الآيةُ الكريمَةُ؛ حتَّى لا يَكُونَ لدَى اليَهُودِ أيُّ نَوْعٍ مِنَ التَّشْكِيكِ، كمَا أنَّ تِلْكَ الآيةَ الكَرِيمَةَ قدْ جاءتْ مُناسِبةً لسِياقِ الرِّسالةِ، مُؤكِّدةً لكلامِهِ-ﷺ-، بلْ إنَّ كلامَهُ-ﷺ- فِي هذِهِ الرِّسالةِ مِنْ بدايَتِها قدِ انْسابَ واتَّسقَ مع هذهِ الآيةِ؛ حيْثُ ذكرَ -ﷺ- اسْمَهُ أوَّلا، ثُمَّ صِفتَهُ، ثُمَّ مُصاحَبَتَهُ لِمُوسَى وأخِيهِ -عليْهِما السَّلامُ-، ثُمَّ تصْدِيقَهُ لِما جاءَ بِهِ مُوسَى، ثُمَّ لَفْتَهُ المُخاطَبِينَ وتنْبِيهَهُ إيَّاهُمْ إلَى وُجُودِ وصْفِهِ عِندَهُمْ فِي التَّوْراةِ كما ذكَرتْهُ تلكَ الآيةُ، ولوْ تتبَّعْنَا الآيةَ الكريمةَ؛ لوجدْنا هذهِ المعانِي تتسلْسلُ فيهَا في منْطِقٍ عَجِيبٍ، وفِي ذِكْر الصُّحبةِ فِي الآيةِ المُبارَكةِ قالَ -تعالَى-:﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، فهُوَ "نَعْتٌ لأصْحابِهِ فِي الكُتُبِ السَّابِقةِ، وهذا مِنْ خصائِصِهِ -ﷺ-"(١).

وذِكْرُ صفَتِهِ -ﷺ- وصِفةِ أصْحابِهِ في الإنْجيلِ كذلكَ، بجانِبِ ذِكْرِها فِي التَّوْراةِ، معَ أنَّ السِّياقَ والمقامَ دعوةُ أصْحابِ التَّوْراةِ إلَى توحيدِ اللهِ -ﷻ-؛ تأْكِيدًا لإقامةِ الْحُجَّةِ عليْهِمْ، وإيناسًا لهُمْ بالتَّقْرِيبِ بينَ الأدْيَانِ، وإحاطةِ اليَهودِ عِلْمًا.

وهكذا فـ" ألْفاظُ النُّبُوَّةِ يَعْمُرُها قَلْبٌ مُتَّصِلٌ بِجَلالِ خَالِقِهِ، ويصْقلُها لِسانٌ نَزلَ عليْهِ الْقُرآنُ بِحَقَائِقِهِ، فَهِيَ وإن لَّمْ تَكُنْ منَ الْوحْيِ، ولكِنَّها جَاءتْ مِنْ سبيلِهِ، وإنْ يكُنْ لها مِنْهُ دليلٌ، فقدْ كانتْ هِيَ مِنْ دليلِهِ، مُحْكَمَةُ

---

(١) سُبُلُ الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد، للإمامِ محمد بن يُوسف الصالحيّ الشاميّ (ت٩٤٢هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، ١٠/ ٢٧٧، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، د.ت.

الْفُصُولِ، حَتَّى لَيْسَ فِيها عُرْوةٌ مَّفْصُولةٌ، مَحْذُوفةُ الْفُضُولِ، حتَّى ليْسَ فِيها كلِمةٌ مَّفْضُولَةٌ[1]".

***

ثُمَّ أتْبَعَ ذلكَ النَّبيُّ -ﷺ- بِمَا يَزِيدُ فِي تذْكِيرِهِمْ بِنِعمِ اللهِ العَظِيمةِ عليْهِمْ؛ حيْثُ قال:

"وَإِنِّي أَنْشُدُكُمْ بِاَللهِ، وَأَنْشُدُكُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ،
وَأَنْشُدُكُمْ بِاَلّذِي أَطْعَمَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْبَاطِكُمُ الْمَنَّ وَالسّلْوَى،
وَأَنْشُدُكُمْ بِالّذِي أَيْبَسَ الْبَحْرَ لِآبَائِكُمْ حَتّى أَنَجَاهُم مّنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ"

مُكرّرًا الفِعْلَ المُضارِعَ الَّذي يُفيدُ نوْعًا مِنْ تجدُّدِ السُّؤالِ، والتَّجدُّدُ يُفِيدُ الإلْحَاحَ فِي الطَّلَبِ، وقدْ بُنِيَ الفِعْلُ المُضارعُ مُسْندًا إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ -ﷺ-، وواقِعًا خبرًا لـ "إنَّ" التَّوْكِيدِيَّةِ، الَّتي تُفِيدُ حتْميَّةَ ثُبُوتِ الخبرِ للمُبْتدأِ، وقدْ وقعَ التَّأْكِيدُ موْقِعَهُ مِنَ البلاغةِ؛ وذلكَ لِما تقْتضِيهِ طبِيعةُ اليَهُودِ حيثُ الجدلُ والعِنادُ الَّذيْنِ يتطلَّبانِ قُوَّةَ المُواجَهَةِ بالتَّأكيدِ والحِجاجِ.

وهذِهِ الجُملةُ (وَإِنّي أَنْشُدُكُمْ بِاَللهِ) هيَ رأسُ المَعْنَى فِي هذهِ الفقْرةِ، ثُمَّ عُطِفَ عليْها ثلاثُ جُملٍ مُتَّحِدةٍ معَها فِي التَّرْكِيبِ، وزائِدةٍ عليْها فِي التَّقْيِيدِ؛ وهذا التَّنوُّعُ يُشِيرُ إِلَى التَّنوُّعِ فِي نِعمِ اللهِ -ﷻ-علَى أولئكَ اليهُودِ، ويدلُّ علَى تَعدُّدِ تِلْكَ النِّعَمِ عليْهِمْ، والَّتِي ذكَرَ النَّبيُّ -ﷺ- أعْظَمَها، ورتَّبَها فِي تسلْسُلٍ بديعٍ؛ حيثُ ذكرَ أوَّلًا نِعْمةَ إنْزالِ كِتابِ التَّوْراةِ علَى نبيِّهِم مُّوسَى -عليه السلام-؛ لِهِدايَتِهِمْ، وإصْلاحِ أحْوالِهِمْ، فقال: (وَأَنْشُدُكُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ)،

---

(1) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرَّافعيّ (ت ١٣٥٦هـ)، ٢/ ١٨٥، دار الكتاب العربي- بيروت، ط٤، ١٩٧٤م.

وقدْ قال اللهُ -ﷻ-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، وهذِهِ مِنْ أكْبَرِ النِّعَمِ عليْهِمْ؛ حيْثُ امْتدَّتْ لِعِدَّةِ أجْيالٍ بَعْدَهُمْ.

ثُمَّ ذكرَ -ﷺ- نِعمةَ إطْعامِ اليَهُودِ الَّذينَ كانُوا قبْلَهُمْ الْمَنَّ والسَّلْوَى؛ حيْثُ إنْقاذُهُمْ مِنَ التِّيهِ، ولأنَّها نِعمةٌ عجِيبَةٌ لا تأتِي إلا بِقُدْرتِهِ -ﷻ-، قال اللهُ -تعالى-: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

ثُمَّ ختمَ -ﷺ- بتذْكيرِهِمْ بِنِعمةِ نَجاتِهِم مِّنْ فِرْعوْنَ وعمَلِهِ، بأنْ شقَّ لِمُوسَى الْبَحْرَ، ونجَّاهُ ومَنْ معهُ، وأغْرقَ فِرْعوْنَ وأهْلَكَهُ، قال اللهُ -ﷻ-: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، وفِي التَّذْكِيرِ بِهذِهِ النِّعمِ وتعْدادِها؛ إقامةٌ للحُجَّةِ علَى أولئِكَ الْيَهُودِ؛ لعلَّهُمْ يرْجِعُونَ عنْ عِنادِهِمْ، ويعْرِفونَ صلاحَهُمْ؛ لِئلَّا يحِلَّ بِهِم مِّنَ العذابِ إنْ كذَّبُوا النَّبيَّ -ﷺ- ما حَلَّ بأقْوامِهِمْ.

قالَ الإمامُ الطَّبريُّ (ت٣١٠هـ)-~- عِنْدَ تفسيرِهِ الآيةَ السَّابِقةَ: "يُوقِفُهُمْ بِذَلِكَ -جَلَّ ذِكْرُهُ- عَلَى مَوْضِعِ حُجَجِهِ عَلَيْهِمْ، وَيُذَكِّرُهُمْ آلَاءَهُ عِنْد أَوَائِلِهِمْ، وَيُحَذِّرُهُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا -ﷺ- أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ

بِفِرْعَوْن وَآلِهِ فِي تَكْذِيبهمْ مُوسَى -ﷺ-[١]".

وقوْلُهُ-ﷺ-: (أَنْشُدُكُمْ بِاَللّهِ) "بِفَتْحِ أَوَّلِهِ وَنُونٍ سَاكِنَةٍ وَضَمّ الشّينِ الْمُعْجَمَةِ، أَيْ أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ، وَضَمَّنَ أَنْشُدُكَ مَعْنَى أُذَكِّرُكَ، فَحَذَفَ الْبَاءَ أَيْ أُذَكِّرُكَ رَافِعًا نِشْدَتِي أَيْ صَوْتِي، هَذَا أَصْلُهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ مُؤَكَّدٍ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ رَفْعُ صَوْتٍ[٢]".

ووقُوعُ الاستِثْناءِ بعد الفعلِ (أَنْشُدُكُمْ بِاَللّهِ) " قِيلَ فِيهِ اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ بَعْدَ الِاسْتِثْنَاءِ بِتَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ حَرْفٌ مَصْدَرِيٌّ؛ لِضَرُورَةِ افْتِقَارِ الْمَعْنَى إِلَيْهِ، وَهُوَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الْفِعْلُ مَوْقِعَ الِاسْمِ، وَيُرَادُ بِهِ النَّفْيُ الْمَحْصُورُ فِيهِ الْمَفْعُولُ[٣]".

وقوْلُهُ-ﷺ-: (إلّا أَخْبَرْتُمُونِي) استِثْناءٌ مُفرَّغٌ، وهُو في موضِعِ المفعُولِ الثَّانِي للفِعْلِ (أَنْشُدُكُمْ)، وتقْديرُ الكلامِ: أسألُكُمْ إخْبارِي.

ثُمَّ يرْجِعُ النبيُّ -ﷺ- علَى المُخاطَبِينَ بِسُؤالِهِمْ، وتَقْرِيرِهِمْ بما أكَّدَهُ عليْهِمْ فِي مُفْتَتَحِ الرّسالةِ (وَإِنّكُمْ لَتَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ)؛ حَيْثُ أَوْقَعَ الإخْبارَ فِي قولِهِ: (إلّا أَخْبَرْتُمُونِي) علَى معْمُولِهِ وهُوَ السُّؤالُ فِي قَوْلِهِ:

---

(١) تفسير الطَّبريّ جامع البيان عن تأويلِ آيِ القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطَّبريّ (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، وأحمد محمد شاكر، ٢/ ٥٧- ٥٨، ط٢، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، د.ت.

(٢) إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري، للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد الشافعيّ القسطلانيّ (ت٩٢٣هـ)، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالديّ، ١٤/ ٢٣٤، دار الكتب العلميَّة، بيروت- لبنان، ٢٠١٦م.

(٣) السابق، ١٤/ ٢٣٤.

(هَلْ تَجِدُونَ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِمُحَمّدٍ؟)

وقدْ طالَ بِناءُ هذهِ الجُملةِ:

"وَإِنّي أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ، وَأَنْشُدُكُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ،
وَأَنْشُدُكُمْ بِالّذِي أَطْعَمَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْبَاطِكُمُ الْمَنَّ وَالسّلْوَى،
وَأَنْشُدُكُمْ بِالّذِي أَيْبَسَ الْبَحْرَ لِآبَائِكُمْ حَتّى أَنجَاهُم مّنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ"

وَذَلِكَ لِمَا تَطَلَّبُهُ طَبِيعةُ الْيَهُودِ مِنْ إنْكارِهِمْ، وتكْذِيبَهُمْ، وإصْرارِهِمْ علَى عِنادِهِمْ؛ فَطالَ بِناءُ هذهِ الجُمْلةِ الَّتِي تُسجِّلُ عليْهِم مِّنَ النِّعمِ ما يُقِيمُ عليْهِمُ الحُجَّةَ، وهذا منَ المذْهبِ الكلاميّ[1]، الّذِي "طريقةُ القِياسِ فِيهِ تكُونُ سهْلةً واضِحةً، ومُقدّماتُهُ صادقةٌ مُعْترَفٌ بِها، حتَّى عِنْدَ ألَدِّ الخُصُومِ، ونتائِجُهُ واضِحةٌ مُسَلَّمةٌ إلَّا مَنْ كابَرَ، وعانَدَ، ونَاقَضَ نفْسَهُ والْواقِعَ[2]".

وهكذا لمَّا كانَ اليهُودُ أهْلَ جدلٍ وعِنادٍ؛ فقدِ استخْدمَ النَّبيُّ-ﷺ- أُسْلُوبَ المذْهبِ الكلاميّ؛ حتَّى يُقِيمَ الحُجَّةَ عليْهِم، ويقْطعَ عنهُم عنادَهُمْ.

كما "كانَ-ﷺ- مِنْ كَمَالِ نَفْسِهِ العظِيمةِ، وغَلَبَةِ فِكْرِهِ عَلَى لِسانِهِ؛ أنْ قَلَّ كلامُهُ، وخرجَ قَصْدٌ فِي ألْفاظِهِ، مُحيطًا بِمعَانِيهِ، تَحْسبُ النَّفْس قدِ اجْتَمَعتْ في الجُمْلةِ القصِيرةِ والكلِماتِ الْمَعْدودةِ بِكُلِّ مَعانِيهَا، فلا تَرَى

([1]) المذْهبُ الكلاميُّ هو: احْتِجاجُ المتكلّمِ علَى المعنى المقصود بحُجَّةٍ عقليَّةٍ تقطعُ= =المُعاندَ لهُ فيه؛ لأنَّهُ مأخوذٌ من علمِ الكلامِ الذي هو عبارةٌ عنْ إثباتِ أصول الدّينِ بالبراهين العقليَّةِ. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن الكريم، لابن أبي الإصبع المصري(ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: د/ حفني محمد شرف، صـ١١٩، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.

([2]) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني، ٢/ ٤٣٤، مكتبة وهبة – القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

الْكَلامَ أَلْفاظًا، ولكِنْ حركاتٍ نَّفِيسةً فِي أَلْفاظٍ؛ ولِهذا كَثُرتِ الكلماتُ الَّتِي انْفردَ بِها دُونَ العرَبِ، وكثُرتْ جَوامِعُ كلِمِهِ، وخلصَ أُسْلُوبُهُ، فلَمْ يُقصِّرْ فِي شيءٍ، ولمْ يُبالِغْ فِي شيءٍ، واتَّسقَ لهُ مِنَ الأمْرِ علَى كمالِ الفصاحةِ والبلاغةِ ما لوْ أرادَهُ مُريدٌ لعجزَ عنْهُ[1]".

***

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النَّبويَّة، مصطفى صادق الرَّافعيّ، تحقيق: عبد الله المنشاويّ، ٢٤٩، مكتبة الإيمان – المنصورة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

ثُمَّ ختمَ النَّبيُّ -ﷺ- رسالَتَهُ، قائِلًا:

"فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ، فَلَا كُرْهَ عَلَيْكُمْ،

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾

فَأَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ"

وهذه الجُملُ تُؤكِّدُ وتُقرِّرُ أنَّهُ -ﷺ- لا يُكْرِهُ أحدًا علَى الإسْلامِ، بلْ يَتْرُكُ لهُ حُرِّيَّةَ اخْتِيارِ الدِّينِ.

وجَوَابُ الشَّرْطِ فِي قولِهِ -ﷺ-: "فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ" هُوَ قولُهُ: "فَأَدْعُوكُمْ إِلَى اللهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ"، وقدِ اعْتُرِضَ بيْنَ الشَّرْطِ وجوابِهِ بِهاتيْنِ الجُمْلَتَيْنِ " فَلَا كُرْهَ عَلَيْكُمْ، قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ "؛ إظْهارًا لِتَسامُحِ الدِّينِ الإسْلامِيِّ الَّذِي لا يُكْرِهُ أحدًا علَى اعْتِناقِهِ.

وقدْ بدَا حُسْنُ الانْتِهاءِ جليًّا فِي هذهِ الجُمْلةِ الخِتامِيَّةِ، بإظْهارِ شيءٍ مِنَ التَّسامُحِ والوُدِّ والاسْتِمالةِ منَ النَّبيِّ -ﷺ-، ومَا كانَ فِي هذا الخِتامِ منْ تعبيرٍ بالشَّرْطِ، واعْتِراضٍ بيْنَ الشَّرْطِ والْجوابِ، واقْتِباسٍ مِنَ القُرْآنِ الْكَرِيمِ، وكُلُّ ذلكَ لهُ بلاغتُهُ فِي التَّركِيبِ، و" أحْسنُ الانْتِهاءِ مَا آذنَ بانْتِهاءِ الْكلامِ، حتَّى لا يبْقَى للنَّفْسِ تشوُّفٌ ألْبتَّة"(١).

***

(١) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، صـ١٧٥، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.

الخاتمة

الحمدُ للهِ الَّذي بِنِعْمتِهِ تتمُّ الصَّالِحاتُ، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الخلقِ أجمعين، وعلَى آلِهِ وصحْبِهِ ومَنْ تبِعَهُمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

وبعدُ

فقدْ خَلصَ البحثُ إلى النتائِجِ الآتِيةِ:

- أثْبتتْ رسالةُ النبيِّ -ﷺ- إلَى يهودِ خيبرَ عالميَّةَ الدِّينِ الإسلاميِّ، ومنْ خلالِها حرصَ النبيُّ -ﷺ- علَى تبليغِ رسالتِهِ بالحِكْمةِ والموعِظةِ الحَسَنةِ، والمُجادَلةِ بالَّتِي هِيَ أحْسنُ.

- كانتْ هذه الرسالةُ منَ الحُججِ الدَّامغةِ فِي الرَّدِّ علَى مَنِ ادَّعَى أنَّ الإسْلامَ قدِ انْتَشرَ بالسَّيْفِ؛ وذلكَ لما ثبتَ أنَّ النبيَّ -ﷺ- خاطَبَ الْيهُودَ بِهذِهِ الألْفاظِ البليغةِ، الخاليةِ عنْ لذَّةِ الانْتِصارِ؛ بِما يُلينُ الْقُلُوبَ، ويُضمِدُ جِراحَ المَهْزُومِ، ويدعُو النَّاسَ إلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ اللهِ أفْواجًا.

- كانَ -ﷺ- يتَخيَّرُ مِنَ الْألْفاظِ مَا يُلائِمُ الغَرضَ الْمقْصُودَ؛ حتَّى يَبلُغَ كلامُهُ المُتلقِّينَ فِي أتمِّ صُورِهِ وأعْلاهَا.

- تجلَّتْ بلاغةُ الخِطابِ النَّبويِّ فِي هذهِ الرِّسالةِ فِي مَقامِ التَّرْغِيبِ، والحثِّ، والاستِمالةِ، والاسْتِدْراجِ، والمَذْهبِ الْكلاميِّ، دونَ تنْفِيرٍ أوْ تَهْدِيدٍ منهُ -ﷺ-.

- جاءتِ الرِّسالةُ مُوجزةً، مُترابطةً في معانِيها، مُحْكمةَ البناءِ مِنْ أوَّلِها إلَى آخِرِها، فبدا فيها براعةُ الاسْتِهلالِ، وحُسنُ التخلُّصِ، وحُسْنُ الانتِهاء، وكأنَّها جُملةٌ واحِدةٌ فِي دعْوةِ يهُودِ خيْبرَ إلَى الله -عزَّ وجلَّ- ونبيِّهِ -ﷺ-.

- أضاءَ الاقْتِباسُ منَ القرآنِ الكريمِ تراكِيبَ هذهِ الرِّسالةِ، فبدتْ قويَّةً

فِي حُجَّتِها، ومُخاطبتِها هؤلاءِ اليهُودِ المُعانِدِينَ.

وبَعدُ؛ فهذا غَايةُ مَا وَصلْتُ إليْهِ فِي بَحْثِي، واللهَ – تعَالَى- أسْألُ أنْ يجْعلَهُ خَالِصًا لوجْهِهِ الكريمِ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على سيِّدِنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِهِ وصحْبهِ أجمعينَ.

وآخِرُ دعْوانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ

***

ثَبْتُ الْمصادرِ والمراجعِ

القُرآنُ الكريمُ

- الأحداث التَّاريخيّة للنبيِّ -ﷺ- دراسة تاريخية منهجية، د/ إمام الشافعي محمد حمودي، دار الخليج – عمان، ٢٠١٧م.

- إرشاد السَّاري لشرح صحيح البخاري، للإمام شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد الشافعيّ القسطلانيّ (ت٩٢٣هـ)، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالديّ، دار الكتب العلميَّة، بيروت- لبنان، ٢٠١٦م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النَّبويَّة، مصطفى صادق الرَّافعيّ، تحقيق: عبد الله المنشاويّ، مكتبة الإيمان – المنصورة، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
- إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمُحيي الدين درويش، ط٧، دار ابن كثير- بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- إعْلام السائلين عن كتب سيِّد المرسلين -ﷺ-، للإمام محمد بن طولون الدمشقيّ (ت٩٥٣هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- بدائع الفوائد، للعلامة الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقيّ ابن قيِّم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٤م.
- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن الكريم، لابن أبي الإصبع المصري(ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: د/ حفني محمد شرف، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
- تفسير الطَّبريّ جامع البيان عن تأويلِ آيِ القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطَّبريّ (ت٣١٠هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، وأحمد

محمد شاكر، ط٢، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، د.ت.

- الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٣هـ–١٩٩٢م.

- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة – القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ– ١٩٩٢م.

- الروض المعطار في خبر الأقطار، لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحِميري (ت٩٠٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.

- سُبُلُ الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد، للإمامِ محمد بن يُوسف الصالحيّ الشاميّ (ت٩٤٢هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلميَّة، بيروت – لبنان، د.ت.

- سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ، ٢٠١٠م.

- السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام أبي محمد بن عبد الملك المغافري البصريّ (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢م.

- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت٩١١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٥٨هـ–١٩٣٩م.

• صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، مؤسسة زاد – القاهرة، ط١، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م.

• الصِّناعتان الكتابة والشعر، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

• الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلويّ اليمنيّ (ت٧٠٥هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

• عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي (ت٧٧٣هـ)، ضمن شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.

• عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، تحقيق: عبد الصمد محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط٢، ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م .

• عيون الأثر في فنون المغازي والشَّمائل والسير، للإمام الحافظ فتح الدين أبي الفتح محمد بن سيد الناس الشافعيّ (ت ٧٣٤هـ)، تحقيق: الشيخ إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

• لسان العرب، لابن منظور جمال الدِّين محمد بن مكرم، دار المعارف- القاهرة، د.ت.

• المثل السَّائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفضلِ ضياء الدين

نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الموصليّ (ت٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.

- نصب الراية لأحاديث الهداية، للعلامة جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف الزَّيْلعيّ الحنفيّ(ت ٧٦٢هـ)، مع حاشيته النفيسة بغية الألمعيّ في تخريج الزَّيلعيّ، إشراف: محمد عوامة، مؤسسة الرَّيَّان، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

الدَّوريَّات العلميَّة:

- مُصطلحُ الاسْتِدْارِج المفهُوم والأثر دراسة بلاغية تأصيلًا وتطبيقًا، د/ محمد بن عبد الرحمن الخراز، بحث منشور في مجلة كليّة اللغة العربية بالزقازيق، العدد الخامس والثلاثون، سنة ٢٠١٥م.